أضواء إسلامية
على المقولة القائلة بأنَّ

الإباضية خوارج



عرض وتحليل ونقد

بقلم
عوشت بكير بن سعيد

أضواء إسلامية على المقولة القائلة:

بأنّ الإباضية خوارج

عرض وتحليل ونقد

بقلم: عوشت بكير بن سعيد

1435هـ - 2014م

الإهداء

- إلى كلّ مسلم غيور على القيم الأخلاقية القرآنية، **مؤمنا بآداب الاختلاف والإنصاف والاعتراف،** إلى تلك الأرواح البريئة التي سقطت ظلما وعدوانا في الفتن العمياء بوادي ميزاب.
- إلى كلّ من أصيب في دمه وماله وأولاده وصحته النفسية.
- إلى كلّ هؤلاء أهدي هذه الأوراق المتواضعة نابعة من أعماق قلبي إيمانا واعتقادا بأنّ الله عز وجل سيلبّي دعوة المظلومين في الدنيا قبل الآخرة.

يقول الحق تعالى: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الشورى:24]، ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:173].

غـرداية: بابا السعد الشرقي

يوم: الأربعاء 18 جوان 2014م

الموافق لـ: 20 شعبان 1435هـ

عـوشت بكير بن سعيد

أستاذ وباحث في الدراسات الإسلامية والفلسفية.

بسم الله الرّحمن الرّحيم

أ- تمهيد:

أيّـها المسلم: استفت قلبك وإن أفتاك النّاس.

﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء 15] وعن أبي هريرة ﷺ قال: قلت: يا رسول الله أيّ المسلمين أفضل؟ قال: «من سلِمَ المسلمون من لسانه ويـده» (متفق عليه).

"تلك دماء طهّر الله منها أيدينا فلنطهر منها ألسنتنا": (الخليفة الأموي العادل عمر بن عبد العزيز رحمه الله).

"نحن ندرس في مدارسنا ومعاهدنا على وجه الخصوص تاريخا إسلاميا مشوّها" (شهيد الإسلام سيّد قطب رحمه الله في التاريخ فكرة ومنهاج، ص:57).

"إنّ المذهبية في الأمّة الإسلامية لا تتحطّم بالحجة وإنّما تتحطّم المذهبية بالمعرفة والتعارف والاعتراف". الشيخ علي يحي معمر رحمه الله.

"إنّ المذهب الإباضي يعبّر عن فكرة وحدة الأمّة العربية الإسلامية وهو أقدم المذاهب تأسيسا وعلماؤه أكثر العلماء تأليفا" العالم المصري: (عبد الحفيظ عبد ربّه الإباضية مذهب وسلوك، ص257).

ب – هل تسمية الإباضية بالخوارج لها هدف سياسي؟

منذ مقتل عثمان بن عفان رحمه الله لازمه سوء الحظّ وكان مقتله يوم الجمعة 18 ذي الحجة سنة 35هـ. إنّ هذه الحادثة الأليمة تعتبر بداية الفتن والانقسامات بين المسلمين إلى يومنا هذا. والسبب الجوهري هو الابتعاد عن الحكم الجمهوري

الشورى الإسلامي إلى الحكم الاستبدادي منذ ظهور الدولة الأموية التي أسّسها معاوية بن أبي سفيان سنة 40هـ.

يقول العلاّمة الباكستاني أبو الأعلى المودودي: "قامت حكومة مروان وأولاده وفيها وصل تحرّر السياسة من الدين وانفلاتها منه بل ذبح أحكام الدين على أعتاب السياسة إلى المنتهى" (الخلافة والملك، ص:121).

فالإباضية يرون أنّ الميزان الوحيد لإمامة المسلمين هو الكفاءة المطلقة والتقوى لقول الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:13] ومن الملاحظ أنّ السياسة الأموية اعتمدت على الأحاديث الوضعية التي تسربت إلى الحياة كلّها، لأجل سلطة الحكم القائم على القوّة والغصب دون مشورة المسلمين.

يقول الدكتور حسني السباعي فيما يلي: "كانت السنة أربعين من الهجرة هي الحدّ الفاصل بين صفاء السنّة وخلوصها من الكذب والوضع والتي تمّ اتخاذها وسيلة لخدمة الأغراض السياسية وانقسم المسلمون إلى فرق متعددة" (السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص90). انطلاقا من هذا نجد أنّ أغلبية المؤرخين يصنفون الإباضية ضمن الفرق الخارجة عن أهل السنّة والجماعة لاسيّما ما كتبه الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري المتوفى سنة 330هـ في كتابه مقالات الإسلاميين واختلاف المصلّين، لقد أصبح كتابه هو العنصر الأوّل الذي قلّده العلماء قديما وحديثا دون الرجوع إلى المصادر الإباضية ذاتها لأنّ الروح العلمية تتطلب ذلك بدون جدال.

يقول الرسول الكريم: «كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع» (رواه مسلم). وعلى أيّة حال فإنّ السياسة المرتدة عن الإسلام الخالص هي التي شوهت الإباضية وعقائدهم وبقيت تلك المفاهيم الخاطئة في تصرفات المسلمين بطريقة شعورية واللاشعورية —ولاسيّما اللاشعور الجمعي المؤلف من الثقافة الاجتماعية التي تنتقل بالتقليد بين الأجيال دون النقد الموضوعي. مثال على ذلك نتعجب كلّ العجب من العلماء الهندوسيين عندما يقدسون البقرة ويعبدونها بالرغم من عبقريتهم في مجال علوم الرياضيات والذرة والفضاء والعلوم الأخرى.

وهكذا فإنّ العالم السويسري يونغ يقول: "إنّنا نحكم على الناس من خلال ثقافة مجتمعنا وأحكامنا المسبقة الكاملة في اللاشعور الجمعي". (الدكتور جميل

صليبا المعجم الفلسفي ج2، ص265). وانطلاقا من هذه الحقيقة العلمية، فإنّ القارئ الكريم قد أدرك كلّ الإدراك أنّ الأحداث التاريخية هي انعكاس للحياة الاقتصادية والدينية والسياسية التي حرّفت تاريخ الإباضية لاسيّما الجانب الديني والتاريخي. فالغاية تبرّر كلّ الوسائل في مجال السلطة ولو كانت هذه الأهداف شيطانية كاذبة كما يقول الفيلسوف الإيطالي مكيافيلي (1469- 1527): "إذا اقتضى الأمر أن تقتل أباك فلا تتردّد للوصول إلى سدة الحكم" (جورج ستابن تطور الفكر السياسي ج3، ص483). فليس غريبا أن نجد الدولة الأموية فد شوّهت المذهب الإباضي باسم أهل البدع والأهواء والخوارج.

يقول جودت سعد في كتابه (حتّى يغيّروا ما بأنفسهم، ص199): "إنّ تاريخ الإسلام هو تاريخ التطبيق

الحقيقي للإسلام وليس هو تاريخ المسلمين ولو كانوا مسلمين بالإسلام أو باللسان".

. **الملاحظـــة**: لا دواء للحمية الجاهلية، يقول الشاعر العربي القديم:

لكلّ داء دواء يستطبّ به إلاّ الجهالة أعيت من يداويها

وفي ضوء هذه الحقيقة التاريخية ظهر الفساد الخلقي في الدولة الأموية والاستهتار بقدسية القرآن الكريم، لقد جاء في كتاب الأغاني: "دعا الوليد بن يزيد ذات ليلة بمصحف، فلمّا فتحه وافق ورقة فيها ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: 15-16] فقال: أسجعا سجعا، علّقوه: ثمّ أخذ القوس والنبل فرماه حتّى مزقه ثمّ قال:

أتوعـــد كلّ جبّـــار عنيد فها أنذاك جـــبّار عنيـــد

إذا لقيت ربّك يوم الحشر فقـــل لله مزقـــني الوليد

دون أن نتجاهل أنّ هذه السلطة انغمست في الانحلال الخلقي والترف والجنس حيث يقول:

إنّني اشتهي السماع وشرب الكأس

والعض للخـــدود المـــلاح

والنديـــم الكريـــم والخادم الفـــاره

يسعـــى علـــيّ بالأقـــداح

(أبو الفرج الصفهاني، الأغاني، ج23، ص:22).

إنّ هذه الانحرافات السياسية الحاكمة التي شوهت الحركة الإباضية باسم أهل البدع والضلالة الدينية قديما وحديثا، وتعتبر هذه المقدّمة ضرورية لفهم الفتنة التي

اتسعت في وادي ميزاب، بدافع الحقد والحمية الجاهلية المذهبية والصراعات السياسية والمادية. والمؤسف أن تقع بعد الاستقلال وهي تناقض مع الأخلاق القرآنية والسنّة والوطنية الجزائرية الخالصة وتعدّ وصمة عار في تاريخ الجزائر. فوادي ميزاب يمثل معالم حضارية إنسانية إلاّ أنّ الفئة الباغية أرادت إبادتها بالتخريب، والنهب والإحراق والتقتيل، حتّى الحيوانات لم تسلم لأنّها تحمل صبغيات وراثية إباضية في نظر أصحاب البغي والعدوان.

يقول الرسول الكريم: «الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها». إنّ نار هذه الفتنة قد اندلعت مع الأسف الشديد في السنوات التالية:

- (بني يزقـــن: 1975م، 2013م).
- (غـــرداية: 1985م، 2013م، 2014م).

- (القرارة: 1989م، 2013م).
- (بريـــان: 1990م ، 2008م ، 2013م، 2014م).
- (مليكة: 2004م–2009م–2013م–2014م).
- (بنـــورة: 2013م، 2014م).

ما الهـــدف من هذه الفتـــنة؟ إلاّ إبادة معالم الحضارة الإسلامية التي تحدّت قساوة الطبيعة.

يقول الأستاذ أحمد توفيق المدني: "ولقد كوّن الميزابيون حضارة وعمرانا في هذه المراكز التي كانت من قبل قاعا صفصفا واستمروا عائشين بها، يعضّون بالنواجد على مذهبهم الإباضي وسط الأعاصير المحيطة بـــهم". (تاريخ الجزائر: ميزاب). وعلى ضوء هذا المنحى الحضاري الإسلامي، فإنّ أصحاب الفتن الجاهلية والنفوس المريضة التي زرعت بذور الفتنة بين المواطنين المتساكنين إذ رفعوا

شعارات تاريخية ظالمة: (أيّها الإباضية، أيّها الخوارج الذين قتلوا علي كرم الله وجهه، يا أعداء الله والإسلام).

ج – تصحيح تلك المفاهيم الزائفة من بعض المصادر التاريخية الغير الاباضية الكثيرة:

قال الإمام مالك بن أنس رحمه الله، عن الشهيد أبي حمزة المختار الشاري الإباضي المتوفى سنة 130هـــ بمكة بعد معركة مع الجيش الأموي: "خطبنا أبو حمزة الشاري خطبة شكّك فيها المستبصر وردّت المرتاب قال: أوصيكم بتقوى الله وطاعته والعمل بكتابه وسنّة نبيه فالطاعة لله، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق وإنّا والله ما خرجنا أشرا ولا بطرا وقتل القائم بالقسط وعنف القاتل بالحقّ" (كتاب العقد الفريد، ج4، ص145).

ملاحظة: هو أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحي رحمه الله، ولد بالمدينة سنة 93هـ فنشأ فيها وتوفي بها عام 179هـ وله كتاب الموطأ الذي يعتبر المرجع الأساسي في المذهب المالكي.

1. يقول الأستاذ العراقي مهدي طالب: "إنّ الإباضية كانت على خلاف عقائدي وسياسي مع فرق الخوارج المتطرفة كالأزارقة والنجدات حيث امتازت هذه الفرقة بمواقفها المعتدلة ولم تكفّر المسلمين المخالفين لهم في المذهب". (الحركة الإباضية في المشرق العربي، ص115)

2. يقول العلاّمة عبد الحافظ عبد ربّه المصري الأزهري في كتابه: "إنّ الإباضية هي أوّل الفرق الإسلامية التي تعتمد على القرآن الكريم والسنّة المطهرة والاجتهاد

وأنّ الإيمان في منظورها تصديق بالقلب وإقرار باللّسان وعمل بالأركان". (الإباضية: مذهب وسلوك، ص256).

3. يقول توفيق المدني في كتابه تاريخ الجزائر ص79 ما يلي: "إنّه يحق للجزائر أن ترفع رأسها مفتخرة بهذه الدولة الرستمية التي قلّما شاهدت بلاد الإسلام قاطبة مثلها بعد دولة الراشدين".

4. يقول الدكتور عوض محمّد خليفات في كتابه الأصول التاريخية للفرقة الإباضية ص53، طابع دار الشعب العماني: "الإباضية ليسوا خوارج كما تدّعي بعض كتب المقالات والملل والنحل وكما يدّعي بعض الكتّاب المحدثين الذين قلّدوا هذه الكتب دون تمحيص وتدقيق".

إنّ المدقق في المصادر الفقهية الإباضية يجد أنّ أصحاب المذهب الإباضي من أكثر المسلمين اتّباعا للسنّة الشريفة والاقتداء بها. أمّا ما تلصقه بهم بعض المصادر من تهم فإنّها هو ناتج عن أحد الأمرين: الجهل أو التجاهل.

د - رؤية الإباضية في الخوارج:

إنّ المذهب الإباضي ينسب أصلا إلى العلاّمة الفقهي أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدي العماني المتوفى سنة 93هـ بالبصرة إلاّ أنّ الدولة الأموية نسبته سياسيا إلى عبد الله بن إباض المتوفى رحمه الله في آخر أيام عبد الملك بن مروان المتوفى سنة 86هـ. ومن أهمّ آثاره الرسالة التي بعثها إليه، بيّنت لنا أنّ الإباضية تبرّؤوا من زعيم الخوارج نافع بن الأزرق حيث قال: "إنّا نبرأ إلى الله عن ابن الأزرق وأتباعه من النّاس لقد كانوا على الإسلام فيما ظهر لنا حين

خرجوا، ولكنّهم ارتدوا عنه وكفروا بعد إسلامهم". (الجواهر المنتقاة البرادي ص165).

وأمّا العلامة أبو يعقوب يوسف إبراهيم الوارجلاني (500-570هـ) فيقول: "وزلّة الخوارج نافع بن الأزرق وذويه حين تأوّلوا قول الله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:121] فأثبتوا الشرك لأهل التوحيد حين أتوا من المعاصي ما أتوا ولو أصغرها" (الدليل والبرهان، ج1، ص15).

وأمّا قطب الأئمة محمّد بن يوسف أطفيش، رحمه الله (1238هـ-1332هـ)، فيقول: "التوحيد عاصم لدم الموحد وماله وسبيه، ومن أحلّ مال الموحد أو سلبه أشرك". (الذهب الخالص: ص28). الموحد هو المسلم العاصي).

ومن هذا المنطلق التاريخي والسياسي فإنّ المذهب الإباضي اعتمد على الدعوة الإسلامية والتأليف دون أن يتجاهل أقوال المذاهب الإسلامية في الفقه، كشرح كتاب النيل وشفاء العليل للشيخ محمّد بن يوسف اطفيش رحمه الله، وبيان الشرع للعلاّمة محمد بن إبراهيم الكندي الذي يشتمل على 72 مجلدا...الخ.

هـ - هل الإباضية هم الذين قتلوا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ؟

إنّ الذي قتل علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه فهو عبد الرحمن بن ملجم العربي الحجازي في مسجد الكوفة في 17 رمضان سنة 40هـ. انظر: 1- الموسوعة العربية. 2- ابن ملجم صناعة أموية لزاهر بن سعود السيابي.

فهل حقًا أنّ إباضية اليوم هم الذين قتلوه، فلو سلّمنا بهذه الحمية الجاهلية العرقية نستنتج ما يلي:

1- إنّ هناك بعض الصحابة والتابعين الأولين رضي الله عنهم يمثلون فئة من الميزابيين مذهبا ولغة وثقافة، شاركوا في كلّ الحروب منذ مقتل عثمان بن عفان ﷺ سنة 35هـ وكلّ الحروب التي وقعت في الدولة الأموية والعباسية والفاطمية .

2- أو أنّ الإباضية قطعوا مسافة 1500 كلم من وادي ميزاب إلى الكوفة بجنوب العراق -ذهابا وإيابا-.

3- أو أنّ عليًا كرّم الله وجهه جاء من العراق إلى وادي ميزاب فقتل هناك، وأتمنّى من علماء الشيعة أن يبحثوا عن قبره ليكون مزارا مقدّسا، فتصبح منطقة

ميزاب مقدسة كالنجف وكربلاء وسامراء وبذلك تزدهر السياحة الدينية إن شاء الله.

نحن نقول: إنّ هذه النتيجة مضحكة ومبكية، تتناقض كلّ التناقض مع العقل السليم، والوقائع التاريخية التي وقعت كلّها في العراق والشام بدافع السياسة الظالمة الاستبدادية التي ذبحت الدين على أعتاب السياسة، ثمّ إنّ الإسلام لم ينشر في إفريقيا الشمالية إلاّ بعد سنة **60**هـ.

أمّا المذهب الإباضي فقد ظهرت بوادره بفضل الداعية سلمه بن سعد حوالي **135**هـ كرد الفعل للسياسة الأموية الظالمة، حيث حوّلت البربر إلى وقود حرب وابتزازهم وإقصائهم والمتاجرة والمساومة ببناتهم وإرسالهن إلى الملوك الأمويين، وهذا بطبيعة الحال يتناقض مع العدالة الإسلامية. انظر: محمود إسماعيل

(قضايا في التاريخ الإسلامي، ط2، **1981** دار الثقافة، الدار البيضاء).

والجدير بالذّكر أنّ عبد الرحمن بن رستم استطاع أن يؤسس أوّل دولة إسلامية جزائرية وذلك سنة **160**هـ واستمر حكمها من سنة **160**هـ إلى **296**هـ: وهي قائمة على المذهب الإباضي ولكنّها تركت حرية المذاهب الإسلامية الأخرى، دون مضايقة كما بيّن ابن الصغير المالكي في كتابه أخبار الأئمة الرستميين.

وعلى ضوء هذه الحقيقة التاريخية ينبغي لنا أن نشير إلى أنّ وادي ميزاب لم يعرف المذهب الإباضي إلاّ في القرن الخامس الهجري بفضل الشيخ أبي عبد الله محمّد بن بكر الفرسطائي المتوفى سنة **440**هـ في بلدية أعمر جنوب مدينة تقرت، لأنّ الميزابيين كانوا في القدم على

مذهب المعتزلة، ثمّ تحوّلوا إلى المذهب الإباضي كما بيّن ذلك الشيخ أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني في كتابه طبقات المشايخ بالمغرب إذ توفي رحمه الله سنة 670هـ.

لا بد أن نبيّن أنّ هناك عدة عائلات ميزابية تسمّي أبناءها بـ: علي وباعلي وحسين وحسن وبناها بـ: فاطمة وزينب ورقية، حبًّا واحتراما لآل البيت عليهم السّلام.

و - كفاح الميزابيين في ميدان الجهاد والسياسة:

وأما في ميادين النضال والسياسة فتدل الوثائق التاريخية أنّ الاستعمار الفرنسي لما احتل الجزائر سنة 1830م ذهب من ميزاب عدّة آلاف من المجاهدين الإباضيين للدفاع عن الدولة الجزائرية، يقول الطبيب

الألماني سيمون بفايفر الذي قال في كتابة مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر تعريب أبي العيد دودو- ص80 ما يلي: وصل مع أمين الميزابيين في الجزائر العاصمة حوالي أربعة آلاف وبذلك أصبح الجيش الجزائري يضمّ خمسين ألف جزائري على الأقل.

لقد أكّد هذه الحقيقة التاريخية الدكتور أبو القاسم سعد الله السوفي في كتابه تاريخ الجزائر الحديث ص34 وجمع أهالي ميزاب حـوالي أربعة آلاف محارب، وكذلك شارك الميزابيـون الإباضيون في كلّ الثورات الجزائرية بدءا من ثورة الأمير عبد القادر الجزائري إلى ثورة نوفمبر 1954م.

لقد بيّنت جريدة الشعب العدد: 187327 بـ18 ماي 1987 هذا الجهاد: "فأيّ مجاهد أو فدائي في أيّ

ناحية يتقدم إلى دكان ميزابي مستظهرا بكلمة سر خاصّة يتلقى على الفور كلّ المساعدات الممكنة المطلوبة".

وفي هذا المسار النضالي، يقول ابن خده بن يوسف، عضو لجنة التنسيق والتنفيذ لجبهة التحرير الوطني (1956/1957) والرئيس السابق للحكومة الجزائرية المؤقتة: "كان التجار الميزابيون من أخلص المساعدين الذين عملت معهم كانوا يتمتعون بجدية وطنية فائقة، كانت محلاتهم مراكز للأسلحة والذخائر ومراكز للطباعة السرية وملتقيات للمناضلين المطاردين من طرف الشرطة الاستعمارية. نقلوا في سياراتهم الخاصة الأسلحة ومختلف الوثائق رغم الخطر الذي يتعرضون له فهم صورة ناصعة للمناضل الجزائري الوفي". نقلا عن الوثيقة المؤرخة في 9 رجب 1407هـ في حق شهادة الشيخ بيوض إبراهيم بن عمر رحمه الله.

وفي ظل هذه الحقيقة التاريخية، لا بدّ أن نشير إلى أنّ أبناء ميزاب قد شاركوا بكلّ فاعلية في الثورة التحريرية بحيث أنّ المصادر التاريخية قد بيّنت لنا، أنّ الولاية السادسة قد تكونت بعد مؤتمر الصومام في 20 أوت 1956م في غابة الحاجب لآل خبزي القراري ببسكرة وانضم أبناؤه لهذه الثورة. أضف إلى ذلك أنّ مراكز الثورة التحريرية بلغ عددها 28 مركزا في العاصمة وحدها عند التجار الميزابين دون أن نهمل المدن الجزائرية الأخرى.

أما بالنسبة إلى شهداء الثورة نجد عدّة إطارات عليا "كالدكتور بكير بن عيسى قضي، والدكتور إبراهيم بن عبد الله تريشين الذي كان عميدا لكلية الطب بالعاصمة، والطبيبة فاطمة الزهراء بنت محمّد بافضل، والرائد عبد الكريم ابن يوسف الملقب بموكا" (تاريخ بني ميزاب: يوسف بن

بكير الحاج سعيد ص209-307)، وعلى القارئ الكريم أن يتطلع أكثر على جهاد الميزابيين من خلال ما ألّفه الشيخ حمّو محمّد عيسى النوري رحمه الله: دور الميزابيين في تاريخ الجزائر قديما وحديثا يتمثل في أربعة أجزاء موثقة.

كذلك نرى من الواجب الديني والوطني أن نذكر أنّ الميزابيين الإباضيين رفضوا التجنيد الإجباري في الجيش الفرنسي لأنّ هذا الأمر سيؤدي حتما إلى سفك دماء المسلمين في الجزائر والعالم الإسلامي ولم ينضموا كذلك إلى الجيش الفرنسي والحركه والقوميه الذين كانوا سواعد قوية وعيونا للمستعمر الفرنسي في احتلال الصحراء الجزائرية والساحل الإفريقي بدون جدال. إنّ هذه الحقيقة توجد في ذاكرة الأمّة الجزائرية راسخة، وكذلك الأرشيف الفرنسي يؤكد لنا هذا الأمر.

ولابد لنا أن نشير إلى أنّ المنظمات الإرهابية التكفيرية الانتحارية، لم يندمج فيها أيّ إباضي، هذه الحقيقة تؤكدها السلطات الوطنية والعالمية، لأنّ الإسلام يقوم أساسا على الرحمة والدعوة إلى الحكمة والموعظة الحسنة والعمل الصالح الذي يكون قدوة حسنة للنّاس يقول الله ﷻ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. [آل عمران: 104]، لأنّ المذهب الإباضي يتميّز بالاعتدال، والتسامح.

ز - تجذر الإسلام والعربية في ميزاب:

وغني عن البيان أنّ الأجداد والآباء والأمّهات رحمهم الله أجمعين ضحّوا بالنفس والنفيس حفاظا على الإسلام واللّغة العربية الفصحى. من خلال المساجد والمحاضر

والمدارس، بالرغم من أنّ البيئة لم تكن عربية اللسان بل أمازيغية اللّسان محليا، لأنّ هؤلاء فهموا بحسّهم الفطري وشعورهم الديني القوي أنّ روح الإسلام لا تدرك إلاّ بالقرآن الكريم الذي أنزل عربيًّا على محمّد ﷺ. ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 02]

يقول مصطفى نبيل "والدليل الحاسم على نجاح حلقة العزابة هو إلغاء الأمّية في ميزاب، ففي الجامع يتعلّم أبناء القرية مبادئ الكتابة واللغة العربية ويحفظون القرآن الكريم وهي صورة فريدة، فالنجاح في القضاء على الأمّية حلم غال لم ينجح في الوصول إليه العديد من أصحاب النظريات الحديثة" (العربي العدد 286، سبتمبر 1982 ص:115).

الملاحظة: إنّ منطقة ميزاب قد سكنتها القبائل الزناتية الأمازيغية منذ أقدم العصور. يقول ابن خلدون

"وسكنها لهذا العهد زناته وإن كانت شهرتها مختصة بمصاب -أي ميزاب- كتاب العبر، ج7، ص124، دار الكتاب اللبناني 1978.

ومن هناك نلاحظ أثر القرآن الكريم وعلومه في أدباء منطقة ميزاب كالشاعر الثائر رمضان محمود، ومفدي زكرياء شاعر الثورة الجزائرية، ورائد الصحافة الجزائرية الشيخ أبو اليقظان رحمه الله (1888/1973) الذي أصدر ثمانية صحف تصارع الاستعمار، والبدع الضالة، الصهيونية العالمية، وحمية الجاهلية المذهبية. يقول فيه الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله: "وطنيّ يناضل ويقارع في سبيل الوطنية ومسلم أخلص لله دينه إنّه يجعل الإسلام في الصفّ الأوّل من جميع أعماله". (مجلة الشهاب جمادى الثانية 1350هـ).

نحن واثقون كلّ الثقة أن وادي ميزاب يعدّ لبنة قوية في الفكر الإسلامي المعتدل، وهذا يعود إلى علمائه الأصلاء الذين شمّروا عن سـواعدهم في تأصل القيم الخلقية الإسلامية والعلمية والوطنية داخل المجتمع الجزائري والإسلامي.

ملاحظـة: انظر محمّد ناصر الشيخ إبراهيم أطفيش في جهاده الإسلامي.

ح - الرد على جاهلية الخصم:

بعد هذا العرض والتحليل والبرهنة ماذا نقول لتلك النفوس الظالمة الضالة التي رفعت شعارات جاهلية متعفنة الإباضية خوارج يا أعداء الله. نقول إلى هؤلاء تحرّروا من حمية العرقية والمذهبية وعقدة النقص والحقد واللاشعور

الجمعي المتمثل في الأسرة والمجتمع وأصحاب المقالات القديمة والحديثة الذين سخّروا أقلامهم خدمة للسلطة الحاكمة لعلّ أن ينصرف المسلمون عنهم لأنّ المذهب الإباضي قائم أساسا على الأعمال الصالحة والتقوى والابتعاد عن التطرف، لنتأمل مَا قاله سيّد القطب رحمه الله: "إنّ الإسلام ينفي كلّ نعرة جنسية أو عنصرية وأنّ هناك ميزانا واحدا لتقدير الأفضلية وهو تقوى الله وطاعته والعمل الصالح في عباده". (نحو مجتمع مسلم ص92) وأمّا آفة التطرف فيقول الشيخ يوسف القرضاوي: "ويبلغ التطرف غايته حين يسقط الآخرين، ويستبيح دماءهم وأموالهم ولا يرى لهم حرمة ولا ذمّة وذلك إنّما يكون حين يخوض لجنة التكفير". (الصحوة الإسلامية بن الجحود والتطرف ص53). وهذا بطبيعة الحال يتناقض كليا مع النصوص القرآنية الكريمة والسنّة الشريفة

يقول الحق تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُومِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَـذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:93]. يقول الرسول ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله. كلّ مسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه» (رواه الترمذي).

وعلى أيّة حال فإنّ الدراسات النقدية الحديثة بينت بكل وضوح أنّ الإباضية يختلفون عن الخوارج عقيدة وسلوكا وتاريخا.

وهم بعيدون كلّ البعد عن التطرف وسفك دماء المسلمين أمّا أصحاب المقالات القديمة لاسيّما الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري المتوفى سنة 330هـ صاحب كتاب المقالات الإسلاميين واختلاف المصلّين، إنّ هذا الكتاب يعتبر المرجع الأساسي في الدراسات الحديثة حول

الإباضية دون أن ينتقد موضوعيا من طرف الباحثين الذين لم يلتزموا بالروح العلمية ولهم أحكام مسبقة راسخة في تصوراتهم.

لقد صدق الشاعر أبو الطيب المتنبي في هذه الحكمة الخالدة:

ومن يك ذا فـم مريض يجد مرا به الماء الزلالا

ومن بين هؤلاء المعاصـرين:

- الخوارج لناصر عبد الكريم
- الإباضية عقيدة ومذهبا للأستاذ صابر طعيمة
- فرق معاصرة تنسب إلى الإسلام لغالب بن علي عـراجي السعودي
- دراسات في الفرق والعقائد للدكتور عرفان عبد الحميد.
- الفقه الإسلامي وأدلته للدكتور وهبة الزحيلي، ط1، دار الفكر دمشق.

الخـــاتمة

بعد هذه الدراسة التحليلية المجملة يمكن أن نخرج بالنتائج التالية:

1. إنّ السياسة الحاكمة الأموية والعباسية والفاطمية آنذاك وبعض الوسائل الإعلامية المعاصرة كقنوات: البصيرة واقرأ. هي التي شوهت وحرّفت المذهب الإباضي ولا تزال وألصقت به الفكر الخارجي التكفيري، وأنّ أصحابه من أهل البدع والتطرف الديني، الذين قتلوا عليا كرّم الله وجهه، وهم إرهابيون تكفيريون، منذ القدم إلى يومنا هذا في العالم.

2. إنّ الإباضية ينظرون إلى الإسلام نظرة كلّية شاملة بدون انفصال بين الاعتقاد قلبا والقول لسانا والفعل

عملا وقد ساهموا بنشر الإسلام والثقافة العربية بإفريقيا الغربية والشرقية وآسيا الشرقية والجنوبية بفضل الإباضية المشارقة والمغاربة.

انظر: دور الإباضية في نشر الإسلام بغرب إفريقيا للدكتور أحمد إلياس حسين.

3. إنّ دواء المسلمين يوجد بأيدينا لمعالجة أمراضنا الأخلاقية الاجتماعية لقد أصبحت دماء المسلمين أرخص من دماء البعوض لأنّ وحدتنا مبنية على بيت العنكبوت بسبب الصراعات المذهبية والابتعاد عن الأخلاق القرآنية ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:41]. ثمّ تجاهلنا سنن الكون التي أوجدها الله ﷻ بحيث أصبحنا دمية بيد العالم الغربي مسخَّرين لا مسخِّرين في المجال

الاقتصادي والدفاعي والعلمي والإعلامي "واكتشاف السنن هو الذي مكّن العالم المتقدّم والتحكم وغفلة المسلمين عنها كانت سبب الانحطاط والسقوط والتخلف، أصبحوا مسخَّرين بدل أن يكونوا مسخِّرين" (محمّد الغزالي كيف نتعامل مع القرآن الكريم، ص**118**).

4. علينا أن نلتزم بآداب الاختلاف لأنّ كلّ الحقائق التاريخية والدينية والاجتماعية والنفسية تؤكد هذه الحقيقة ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: **118-119**].

5. أليس من العار والابتعاد الكلّي عن الأخلاق الإسلامية قرآنا وسنّة، أن يلتهب وادي ميزاب بفتنة

بركانية لا يقبلها الدين ولا العقل ولا دماء الشهداء ولا يستسيغها المنطق ولا الحضارة الإنسانية العالمية التي تعتبر ميزاب معجزة برزت في الصحراء بإرادة الإنسان التي لا تعرف المستحيل.

نحن نقول إلى هؤلاء الفاسدين إنّكم تفتقرون إلى التحضر وإلى ذرة الإيمان والتقوى الراسخ الذي يجعلكم تؤمنون بيوم الحساب العسير، بحيث لا تنفعكم فتاوى أعلامكم ولا مذهبكم ولا أموالكم ولا آباؤكم ولا أولادكم.

يقول الحق تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: **47**].
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ

عَنْ وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [لقمان: 33].

6. إنّ الخروج من هذا المأزق المظلم المتعفن لا يكون إلاّ بالالتزام بالأخلاق القرآنية والمصلحة الوطنية الخالصة وآداب الاختلاف بأن نلتزم بهذه الحكمة الخالدة "نتعاون فيما اتفقنا فيه ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه". وأن تكون سلطة قوية عادلة صارمة لا تميّز بين هذا وذاك وتحمي المواطن في كلّ حقوقه دون تسويف وإقصاء. إنّ إرادة الله ﷻ، جعلت النّاس يختلفون في نسيجهم الاجتماعي الذي يتجلى في كلّ البيئات الاجتماعية العالمية في اللون واللغة والدين والعادات المختلفة...الخ، كما رأينا في الآية السابقة ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ

وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: 22].

أيّها المسلم، فليتق كلّ واحد منّا الله حق تقاته، ونؤمن إيمانا جازما راسخا بالنعيم والجحيم فبئس المصير، وعن النعمان بن البشير رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ أهون الناس عذابا يوم القيامة لرجل يوضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه ما يرى أنّ أحدا أشدّ منه عذابا وإنّه لأهونهم عذابا» (متفق عليه).

7. والهدف من كلّ هذا أن نبيّن ونذكّر أنفسنا والمؤرخين ورجال الدين والفتاوى بأخطاء الماضي لدعوتهم إلى تجنبها في الحاضر والمستقبل والجدال العقيم، وأن نكون دعاة خير ووئام رافضين الاستبداد

السياسي والانحرافات الدينية وأن نلتزم بالموضوعية في كتابة التاريخ الإسلامي، والمؤرخ النـــزيه لا يعترف إلاّ بسلطة العقل النقدي للوصول إلى الحقّ كما يرى ذلك الدكتور عوض محمّد خليفات الأردني لما درس المذهب الإباضي دراسة علمية نقدية فقال: "أمّا ما تلصقه بهم بعض المصادر من تُهم فإنّما هو ناتج عن أحد الأمرين الجهل أو التعصب".

يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ رَبِّـــيَ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [القصص:85].

وأخيرا لا يسعني إلاّ أن أقدم جزيل الشكر والتقدير والعرفان والمحبّة الخالصة إلى الذين شجعوا هذا البحث المتواضع من قريب أو بعيد، خدمة للمعرفة العلمية وبيان الحق الواضح من مصادره أمام أعداء الإسلام والوطن. إنّ

التاريخ لا يرحم ولا يمحى من ذاكرة الأمّة مهما طال الزمان يقول الله تعالى: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الشورى: 24]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: 18].

والسّلام عليكم ورحمة الله.

الفهرس

بعض المصادر الإباضية

- المدونة الكبرى تقع في جزأين للشيخ أبي غانم الخرساني.
- شرح كتاب النيل وشفاء العليل وهو يشتمل على 17 مجلدا للشيخ اطفيش قطب الأئمة.
- في رحاب القرآن الكريم للشيخ بيوض إبراهيم.
- مشارق أنوار العقول للشيخ السالمي.
- قاموس الشريعة يشتمل على 92 مجلدا للعلامة جميل بن خميس.
- البعد الحضاري للعقيدة الإباضية للأستاذ فرحات الجعبيري.
- الإباضية في موكب التاريخ بليبيا، تونس، الجزائر، للشيخ علي يحي معمر.
- دور الميزابين في تاريخ الجزائر قديما وحديثا للشيخ حمو عيسى النوري.
- فقه الإمام جابر بن زيد للشيخ يحي بكوش.
- أضواء إسلامية على المعالم الإباضية لبكير بن سعيد أعوشت.
- الإباضية في مرآة علماء الإسلام قديما وحديثا لبكير بن سعيد أعوشت.